الفصل الحادي عشر

النهروان في عهد الخطاط

١ – نهر

شرحنا في الفصول المتقدمة ما كان عليه وضع النهروان في العهد العباسي الزاهر، وخلاصة ما قلناه ان «القاطول الاعلى الكسروي» المتفرع من «الدور» كان يروي الأراضي العليا الواقعة بينه وبين مجرى دجلة القديم، وهي المنطقة التي كانت تعرف بـ «طسوج بزرجسابور»، وذلك بفضل السد الغاطس الواقع في ذنائبه والذي كان يحجز كل المياه الصيفية فيحولها الى تلك الأراضي[١]؛ كما ان القاطول الاسفل (قاطول ابي الجند المسمى اليوم نهر القائم)، وهو النهروان الرئيسي بصدريه الصيفي والشتوي، كان يروي الأراضي الوسطى والسفلى الواقعة على جانبي النهروان والتي تمتد من نهر العظيم حتى مدينة الكوت الحالية[٢]. وفي هذا الدور الزاهر كان ينتفع بمياه أنهر «العظيم» و «ديالى» و «الزاب الصغير» كلها في موسم الصيهود لأرواء أراضي العظيم وديالى، وذلك بفضل السدين المنشأين على النهرين، ديالى والعظيم، عند جبل حمرين[٣]. هذا في موسم الصيهود، أما في موسم الفيضان فكان القاطولان، الأعلى والأسفل، يتحدان بمجرى واحد جنوب السد الغاطس الكائن في ذنائب القاطول الأعلى،

---

(١) راجع البحث المتقدم الخاص بالقاطول الكسروي في ص ١٥٩ و ٢٠٤ والبحث الخاص بطسوج بزرجسابور في ص ١٨٢ و ٢٠٨ و ٣٥٥

(٢) راجع البحث المتقدم الخاص بقاطول أبي الجند (نهر القائم) في ص ١٤٧ و ٢١٢ و ٢٣٦

(٣) راجع البحث المتقدم الخاص بهذين السدين في ص ١٥٩ و ١٦٢ و ٣٨٤

فتسير مياههما في هذا المجرى الموحد (مجرى النهروان) الى أن تصل الى قرب قصبة الكوت الحديثة فتنتهي الى دجلة هناك ، كما كان بعض مياه فيضان نهر ديالى يجري الى النهروان من خلال السدّ الذي في جبل حمرين فينصب في النهروان قرب بعقوبا[١] . وفي الوقت نفسه كانت مياه النهروان الزائدة تصرف الى دجلة في موسم الفيضان عن طريق الجدول المسمى « جدول ديالى » ، وهو الجدول الذي كان يتفرع من الضفة اليمنى للنهروان في نقطة تقع جنوب « مدينة النهروان » بقليل ويصب في دجلة جنوب مدينة بغداد قرب مصب نهر ديالى الحالي[٢] . وكان مجرى ديالى ، الذي يقطع جبل حمرين ويجتاز سد ديالى في ذلك المكان ثم ينتهي الى النهروان ، يعرف باسم « تامرّا » ، كما ان مجرى النهروان نفسه بين مصب « تامرّا » عند بعقوبا وبين صدر « جدول ديالى » في جنوب « مدينة النهروان » كان يعرف باسم تامرّا أيضاً[٣] .

ولسوء الطالع لم يدم ذلك العصر الذهبي الذي شاهدته البلاد في القرون الثلاثة الاولى من العهد العربي طويلاً ، إذ بدأ التفسخ والوهن يدبّان في جسم المملكة فظهر تأثيرهما بعد أواسط القرن الثالث للهجرة ، نتيجة لتقلّص نفوذ الخلفاء وسيطرتهم على شؤون المملكة ، الأمر الذي أدى أخيراً الى انهيار مشاريع الري في القطر كله . وهنا يدخل دور انحطاط النهروان الذي يبدأ في حوالي أواخر القرن الثالث الهجري (أوائل القرن العاشر الميلادي) وينتهي باضمحلال ذلك المشروع العظيم نهائياً بعد احتلال المغول للعراق في القرن الثالث عشر الميلادي .

---

(١) راجع ما تقدم في ص ١٦٠

(٢) راجع البحث المتقدم الخاص بجدول ديالى المذكور في ص ٣٨٥

(٣) راجع ماتقدم في ص ٣٨٣ — ٣٨٤

٢ ـ انهيار « سد ديالى » القديم ونتائجه

ان أول حادث وقع في هـذا الدور هو انهيار السد القائم على نهر ديالى في جبل حمرين ، وهو السد الذي كانت تحوّل من أمامه مياه ديالى الى جداول الري ، وبالاخص منها مجرى الروز الذي كان يسحب معظم مياه الفيضان فيصبها في « منخفضات مريجة » ومنها الى دجلة جنوب مدينة الكوت الحالية عن طريق « هور الشويجة »[1] . وقد وقع هذا الحادث الخطير حوالي السنة ٣٠٠ هجرية (٩١٢ الميلادية) فأدى الى توسع مجرى تامرا (مجرى ديالى الاعلى) الذي يمتد بين موقع السد في جبل حمرين ومصبه في النهروان عند بعقوبا ، كما أدى الى تخرّب مجرى النهروان في القسم الممتد بين بعقوبا وصدر « جدول ديالى » الذي يتفرع من الضفة اليمنى للنهروان جنوب « مدينة النهروان » ويصب في دجلة جنوب بغداد ، وقد انتهى ذلك أخيراً الى اتصال مجرى تامرّا الاعلى بجدول ديالى الأسفل فتكوّن بذلك المجرى المعروف اليوم بنهر ديالى ، وهو النهر الذي يصب في دجلة جنوب بغداد بقليل . وهكذا فقد رجع نهر ديالى الى مجراه الاصلي الذي كان يسير فيه قبل انشاء السد في جبل حمرين وقبل انشاء مشروع النهروان الذي يسير بين سامراء والكوت . وكانت نتائج ذلك وخيمة بالنسبة الى سكان نهر ديالى من جهة والى سكان النهروان من الجهة الثانية ، لان انهيار السد أدى أولاً الى انقطاع المياه الصيفية عن أكثر الجداول التي كانت تتفرع من نهر ديالى من أمام السد والتي كانت تروي الاراضي الواقعة على جانبي نهر ديالى بين جبل حمرين والنهروان ، ومن جملتها مجرى الروز الذي كان يسحب معظم مياه ديالى في موسم الفيضان فيصبها في دجلة جنوب الكوت ، ثم أدى الى فصل النهروان عن قسمه الأعلى الذي يستمد مياهه من القواطيل من قرب سامراء .

وهكذا بعد ان كانت طساسيج ديالى في أوائل القرن الثالث الهجري

---

(١) راجع ما تقدم في ص ١٥٩ و ٣٨٠ — ٣٨٢ و ٣٩٤ — ٣٩٦

(٢٠٤ هـ) في مقدمة الطساسيج المذكورة في قوائم جباية السواد ، وبعد ان كانت لها كورة خاصة بها ، أعني « استان شاذ قباذ »[١] ، أصبحت على حين غرّة أرضا قاحلة بعد انهيار سد ديالى في أواخر ذلك القرن ، فهجرها سكانها وغطتها الرمال إلا ما كان واطئاً من الأراضي المجاورة لنهر ديالى فقد زرعت بعد بذل جهد كبير ، ولذلك انقطع ذكر طساسيج ديالى التي في « كورة شاذقباذ » ، أي « الدسكرة » و « جولاء » و « جلتا » و « الذيبين » و « سلسل » و « مهروذ » و « براز الروز » في قائمة جباية السواد لسنة ٣٠٦ هـ (٩١٨ م) ، وهي قائمة علي بن عيسى وزير المقتدر كما قرأها فون كريمر[٢] ، أما القسم الواقع فوق جبل حمرين ، وهو « طسوج روستقباذ » ، فاستمرت جبايته لان القسم الشمالي هذا لم يتأثر بانهيار سد ديالى المذكور .

هذا ما يختص بجداول نهر ديالى ، أما ما يختص بالنهروان فبعد ان انقطعت عنه مياه القواطيل بنتيجة انهيار سد ديالى جرت محاولة في بادىء الأمر لتحويل مياه ديالى اليه وذلك بطريق مجرى تامرا الذي يجري بين جبل حمرين والنهروان ، على ان تصرف مياه الفيضان التي تدخل في النهروان الى نهر دجلة بطريق « جدول ديالى » الذي يتفرع من الضفة اليمنى للنهروان جنوب « مدينة النهروان » وينصب في دجلة جنوب مدينة بغداد[٣] ، إلا ان هذه المحاولة لم تجد نفعاً لأن مجرى النهروان لم تكن له سعة كافية لاستيعاب كل مياه فيضان ديالى التي يرتفع تصريفها في بعض الفيضانات العالية الى ما يقرب من ثلاثة آلاف متر مكعب في الثانية . وكان طبيعياً ان يؤدي غزو مياه ديالى لمجرى النهروان الى تمزيق واحتلال القسم الممتد بين بعقوبا وصدر « جدول ديالى » القديم ثم « جدول

---

(١) راجع البحث الذي تقدم عن « كورة شاذ قباذ » في ص ٣٨٠—٣٨٣

(٢) راجع « تاريخ التمدن الاسلامي » لجرجي زيدان ، الجزء الثاني ، ص ١٠٧

(٣) راجع البحث المتقدم الخاص بمجرى ديالى وعلاقته بالنهروان في الصفحة ٣٨٣

ديالى » نفسه الذي يتصل بنهر دجلة جنوب بغداد . وهكذا تكوّن مجرى نهر ديالى الحالي فشطر النهروان شطرين ، الشطر الأعلى الذي يستمد مياهه من القواطيل وتنتهي فروعه الى الجانب الغربي لنهر ديالى ، قرب مدينة بغداد ، والشطر الثاني الذي يبدأ من نهر ديالى وينتهي الى قرب الكوت ، وهو القسم الذي انقطعت عنه المياه على أثر اختراق نهر ديالى للنهروان وشقه مجرى خاصاً به ينتهي الى دجلة .

٣ ـ « مصنعة السهلية » على ديالى

وكان لا بد من القيام بمشروع لايصال المياه الى النهروان الاسفل بعد انقطاعها عنه بغية تأمين استمرار الزراعة والسكنى فيه ، وقد رأى الخبراء بأن أفضل طريقة يمكن معها تحقيق ذلك هو تحويل بعض مياه ديالى الى ذلك القسم من النهروان والاكتفاء بهذه المياه بعد أن أصبح ايصال مياه دجلة الى النهروان عن طريق القواطيل متعذراً . وعلى هذا الأساس انشأوا سداً من الآجر على مجرى ديالى الجديد في جوار فوّهة « جدول ديالى » القديم الذي كان يتفرع من النهروان من جنوب « مدينة النهروان » أو في نفس الموضع الذي يقع عليه ناظم صدر ذلك الجدول ، وقد انشيء هذا السد بفتحات ذات أبواب خشبية تسد في موسم الصيهود لتحويل مياه ديالى كلها الى النهروان ويفتح بعضها في موسم الفيضان لصرف المياه الزائدة الى دجلة عن طريق جدول ديالى القديم الذي يصب في دجلة جنوب بغداد ، وهو الجدول الذي حلّ محله مجرى ديالى بعد انهيار السد الذي في جبل حمرين .

وقد وصف ابن عبد الحق في معجمه السد المذكور مطلقاً عليه اسم «مصنعة» وهو الاصطلاح العربي لمثل هذه السدود الحاجزة التي تحجز بها المياه لتحويلها

الى الجداول الفرعية أو لخزنها[1]، وقد عرفت هذه المصنعة فيما بعد بأسم «مصنعة السهلية». ومما ذكره ابن عبدالحق ان السد كانت له أبواب تسد عند قلة المياه لتحويل مياه ديالى الى مجرى النهروان وتفتح عند زيادتها لسحب بعض المياه الفائضة وصبها في دجلة جنوب بغداد بطريق جدول ديالى القديم ، وقد عيّن موضع المصنعة بالقرب من « مدينة النهروان » . وهذا نص ما ذكره في مادة النهروان، قال : « النهروان نهر يأخذ من تامرا قد كان على فوهته مصنعة ذات أبواب تسد عند قلّة المياه وتفتح عند زيادته ترد الماء عليه ومدنه وقراه باقية الى الآن لكن ليس فيها أحد لانقطاع الماء عنه بسبب خراب المصنعة التي كانت ترد الماء عليه حتى لم يبق لها أثر وكان على فوهته قرية كبيرة ومدينة فيها سوق كبير وعالم كثير كانت تعرف بالنهروان خربت في زماننا وخلى أهلها عنها » .

وهكذا فقد أصبح النهروان الذي يمتد بين ديالى والكوت يعتمد في ايراده المائي على نهر ديالى (تامرا) بعد أن كان يستمدّ مياهه من دجلة بطريق القواطيل، كما انه أصبح دخول مياه ديالى اليه متوقفاً على صمود «مصنعة السهلية» السالفة الذكر أمام تيار المياه . وباتصال مجرى ديالى اليه (تامرا) بالنهروان صار مجرى تامرا الرئيسي الذي يبدأ عند منابعه في جبال كردستان وينتهي الى أواخر النهروان قرب الكوت يعرف باسم « النهروان » ، والدليل على هذا ان ابن حوقل لما وضع خارطته في حوالي سنة ٣٦٧ هـ رسم مجرى النهروان باعتباره يمتد من حدود اذربيجان وحدود الجبل فيترك مدن قصر شيرين وخانقين وجلولاء والدسكرة الى يساره ثم يصل الى مدينة النهروان وهي على جانبيه ومنها الى

---

(١) جاء في معجم ياقوت في سرد اصطلاح «المصنعة» ما يلي : « قال المفسرون في قوله تعالى (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) المصانع الابنية ... وقال بعضهم هي احياض تتخذ للماء واحدها مصنعة ومصنع ويقال للقصور أيضاً مصانع .

قال لبيد :

بكينا وما تبلى النجوم الطوالع ... وتبلى الديار بعدنا والمصانع

اسكاف بني جنيد وجرجرايا الواقعتين على جانبه الايسر حتى ينتهي الى دجلة عند فم الصلح مقابل نهر سابس[1] (راجع الرسم رقم ٢٣ « صورة العراق » لابن حوقل) .

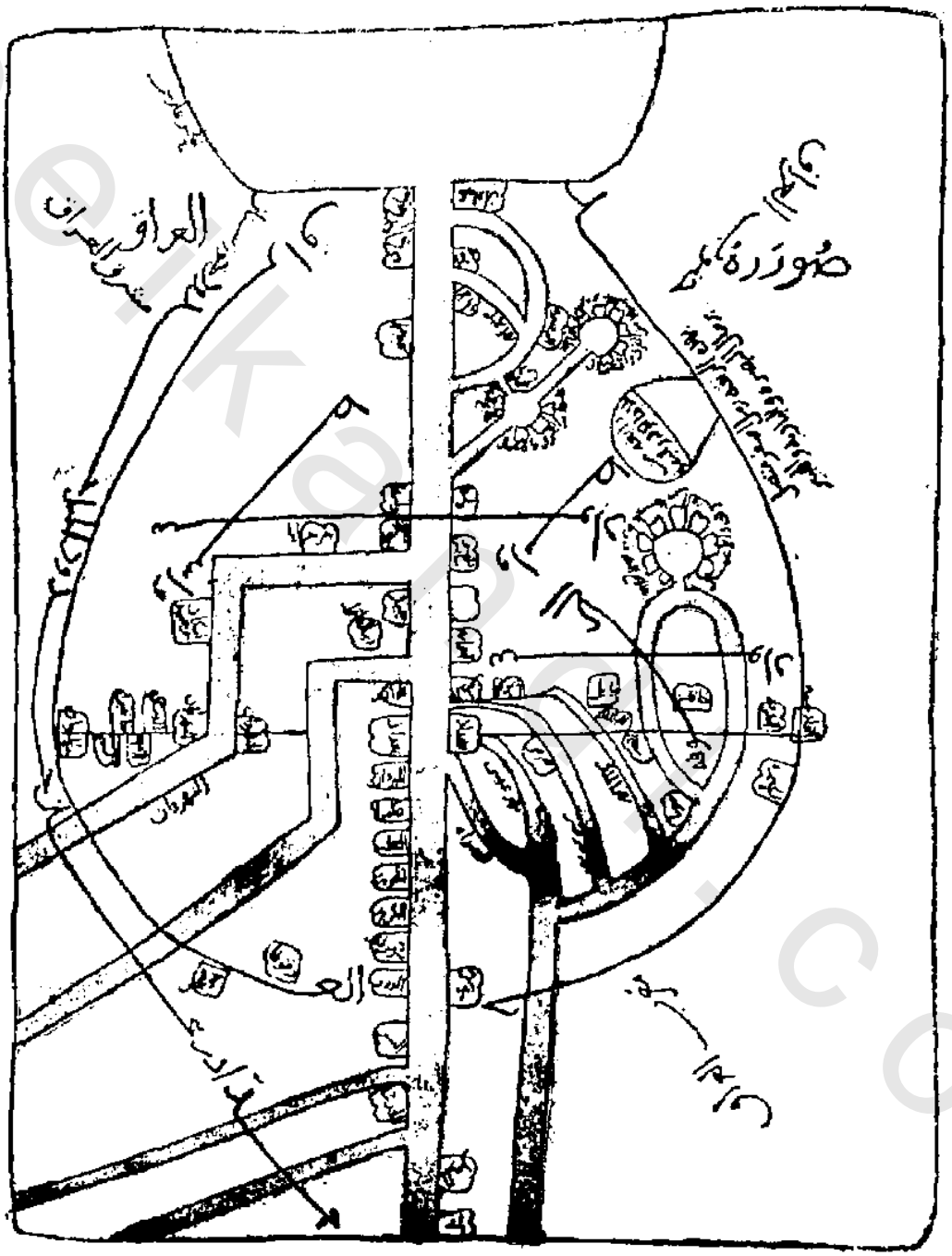

رسم رقم ٢٣ — صورة العراق لابن حوقل

(١) راجع البحث المتقدم الخاص بعصب النهروان في دجلة في ص ٤٦٤

اما تاريخ انشاء « مصنعة السهلية » فان المصادر التاريخية كلها تؤيد بأن سد ديالى الذي في جبل حمرين كان عامراً في أواخر القرن الثالث الهجري وان النهروان كان يستمد مياهه في ذلك الوقت من دجلة بطريق القواطيل التي في جوارسامراء ، فضلاً عن بعض مياه فيضان ديالى التي كانت تسال اليه من خلال السد الذي في جبل حمرين[1] . وقد ورد ذكر « مصنعة السهلية » لأول مرة في عهد خلافة الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ = ٩٣٤ ـ ٩٤٠م) في حوادث بجكم ومحمد بن رائق في سنة ٣٢٦ هـ ، فقد جاء في ذكر هذه الحوادث انه لما قدم بجكم التركي من واسط وهو متجه نحو بغداد كان محمد بن رائق يستعد للقائه وقتاله فبعث من يبثق نهر النهروان الى درب ديالى ، أي انه أرسل من يكسر « مصنعة السهلية » ، إلا ان ذلك لم يمنع بجكم من الاستمرار في زحفه على بغداد حيث نصب على نهر ديالى جسراً عبر عليه وقد عبر بعض اصحابه سباحة فانهزم ابن رائق وصار الى عكبرا[2] .

٤ ـ أهمية « مصنعة السهلية » بالنسبة الى مياه النهروان

نستخلص مما تقدم ان « مصنعة السهلية » انشئت في أواخر القرن الثالث

---

(١) انظر بصورة خاصة ما كتبه ابن سرابيون حوالي عام ٢٩٠ هـ وما كتبه ابن رسته حوالي الوقت نفسه وهما يؤيدان ان اتصال القواطيل بالنهروان ومدها اياه بالمياه في ذلك الوقت ، ومما كتبه الأخير قوله : « ومخرج النهروان من جبال ارمينية ويمر بباب صلوى ويسمى هناك تامرا ويستمد من القواطيل فاذا صار بباجسرى سمي النهروان ويصب في دجلة أسفل جبل » ويقصد هنا بنهر تامرا مجرى ديالى الذي يمتد بين السد في جبل حمرين والنهروان قرب بعقوبا . ونعيد الى ذهن القارىء ما سبق وشرحناه من ان تسمية تامرا كانت تشتمل عدا هذا القسم من ديالى القسم من النهروان الذي يمتد بين مصب تامرا في النهروان قرب بعقوبا وبين مخرج جدول ديالى من النهروان جنوب « مدينة النهروان » .

(٢) راجع ياقوت (مادة النهروان) ، كذلك كتاب مسكويه الجزء الاول ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥

الهجري (أوائل القرن العاشر الميلادي) ، ولعلها بقيت في أوائل حكم المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ = ٩٠٨ ـ ٩٣٢م) ، اذ يلاحظ من قائمة جباية السواد لسنة ٣٠٦ هـ ان المصنعة كانت قائمة في ذلك الوقت بدليل ان النهروانات الثلاثة كانت مجباة حينذاك . ويروي ياقوت ان البلد بقي خراباً لمدة اربع عشرة سنة وذلك بعد ان تخرّبت المصنعة في عهد بجكم (سنة ٣٢٦ هـ) « حتى فني أهله بالغربة والموت الى ان قيّض الله معز الدولة أبا الحسين أحمد بن بويه الديلمي (٣٢٠ ـ ٣٥٦ هـ = ٩٣٢ ـ ٩٦٧ م) فسد درب ديالى بعد ان سدّ مراراً فانقلع ووقع الناس منه في شدة فلما قضى الله سدّه عاش اليسير ممن بقي من أهله وتراجعوا اليه » . ويظهر ان معز الدولة قد انتهى من عمله في اعادة انشاء « مصنعة السهلية » في سنة ٣٤٥ هـ إذ ذكر مسكويه ان معز الدولة خرج في تلك السنة « بنفسه الى النهروانات فسد بثقاً بها وكانت النهروانات قد بطلت وكذلك بادوريا فلمّا سد بثوقها عمرت بغداد وبيع الخبز النقي عشرين رطلاً بدرهم فمالت العامة الى أيام معز الدولة وأحبوه »[1] .

وقد روى ياقوت نقلاً عن ابن الجراح انه « لما وردنا ناصر الدولة الحسن ابن حمدان الى بغداد في سنة ٣٣١ هـ مستولياً على تدبير الامور بها أطلق عشرين ألف دينار للنفقة على بثق النهروان بالسهلية » . ثم أشار الى رواية ابن الجراح التالية : « وكنا في هذا الموضع بحضرة ناصر الدولة وجرى ذكر هذا البثق بمحضر من يواخي وكان عبيد الله بن محمد الكلواذاني صاحب الديوان حاضراً وخاصموا فيه وفيما يرتفع باصلاحه من نواحيه وهي النهروانات الثلاثة وجاذر والمدينة العتيق وشرقي كلواذا والاهواز فقال الكلواذاني وهو في الديوان منذ اربعين سنة هذه بلدان يرتفع منها للسلطان الف الف درهم وخمسمائة الف درهم » . ويستدل من هذا ان العائد المذكور كان يحصل عليه من هذه

---

(٣) كتاب مسكويه ، الجزء الثاني ، ص ١٦٥

المنطقة في سنة ٣٩١ هـ أي قبل انهيار سد ديالى حين كانت تروى من القواطيل ومجرى ديالى (تامرا) .

ويستفاد مما ذكره المؤرخون ان « سد السهلية » كان مصدر قلق شديد لدى رجال الحكم ، فكانوا يبعثون من يعتمدون عليهم الى موقع السد لصيانته والاشراف على تحكيمه ، وكان هؤلاء ملزمين بالمقام هناك حتى ينتهي موسم الفيضان ، وندوّن فيما يلي رواية حكاها مسكويه في صدد العمل على تحكيم سد السهلية في سنة ٣٦٩ هـ تدلنا بجلاء على عظم اهتمام رجال الحكم بهذا السد ومراقبتهم الشديدة للقائمين بتحكيمه والاشراف على صيانته ، قال : « كان بين بثق السهلية وبين مدينة النهروان مدى قريب وكان هناك قبة مبنيّة على السكر وكان المكلفون بالمقام على السكر يسكنون فيها ويمنع عليهم الذهاب الى جسر النهروان حتى مرة قيل انه لما سد المطهر بن عبد الله بثق السهلية رتب عليه ابراهيم المعروف بالأغرّ وأمره بالمقام عليه ومواصلة تعليته الى حين انقضاء المدود . فأقام ابراهيم على هذا السكر زمناً طويلاً وكان له منزل بجسر النهروان وبينه وبين السكر مدى قريب وكان يخشى الذهاب الى منزله ولو لدخول الحمام حتى مرة ارسل عضد الدولة أحد خواصه الى السكر وأمره أن يمضي على جمازة جمل ويقصد سكر السهلية ويدخل الى القبة التي على ظهر المروحة فان وجد ابراهيم الأغرّ هناك اعلمه انه سيجازى على خدمته وطول ملازمته وادفع اليه هذا الكيس ففيه الف درهم ليصرفه في نفقته وان لم يجده وكان قد دخل الى داره بجسر النهروان فاقصده واهجم عليه في منزله وخذ رأسه واحمله . ولما وجده على السكر ترك الكيس بيده فحمد الله على ذلك »[1] .

وكان الخلفاء يذهبون أحياناً الى موقع « السهلية » للاشراف على تحكيم السد

---

(١) كتاب « مسكويه » الجزء الثالث ص ٦٩ — ٧٠ .

بانفسهم، فروى لنا الصولي في احداث سنة ٣٣٠ هـ ان الخليفة ذهب بنفسه «الى بثق النهروان يوم الثلاثاء لتسع خلون من شهر ربيع الأول فصلى عليه فلما انصرف جنده حتى تهوّر السكر وعاد البثق الى حاله »[١] .

وقد روى ابن الجوزي حادثة اخرى تدلنا على اهتمام اولياء الأمر بتحكيم « سد السهلية » خلاصتها انه لما كان نخر الملك مشرفاً على سكر بثق النهروان وقع رجلان في الخسف فطرح التراب والقصب عليهما فهلكا . واليك ما كتبه في هذا الصدد قال : « وفي يوم الاربعاء سادس صفر سنة ٤٠٣ خرج نخر الملك الى بثق اليهودي[٢] بالنهروان فعمل فيه حتى احكمه وأخذ بيده باقة قصب فطرحها فوافقه الناس وحملوا التراب على رؤوسهم ووقع في بعض الخسوف والفوارات رجلان من السوادية فطرح التراب والقصب عليهما فهلكا وكان نخر الملك ساهراً ليلته قائماً على رجله والرجال يعملون حتى ثبت السكر ثم رتب العمال في كل رستاق وعمر البلاد فارتفع في تلك السنة بحق السلطان بضعة عشر الف كر وخمسون الف دينار »[٣] .

وروى ياقوت في أخبار أحمد بن علي البتي انه عمل في نخر الملك وهو يسد بثق النهروان قصيدة يصف فيها السكر قال فيها :

إذا أتاه الماء من جانب عاجله بالسد من جانب

فقال له هذا والله ايها الاستاذ بارد واعاده فحكى البيت وتأمله وقال نعم

---

(١) كتاب « الاوراق » الجزء الثاني ، ص ٢٢٥

(٢) يلاحظ هنا ان ابن الجوزي سمى سد السهيلة باسم « اليهودي » واصل ذلك جاء سهواً أو يحتمل ان هناك مكاناً في منطقة « مصنعة السهلية » كان يسمى باسم « اليهودي » ، لأنه لم يكن في ذلك الوقت (أي في سنة ٤٠٣ هـ) أي سكر على النهروان يستدعي مثل هذا الاهتمام غير « سد السهلية »

(٣) راجع « المنتظم » الجزء السابع ص ٢٦٠

والله هو بارد وجعل يموج على نفسه ويكرّر الانشاد مستبردا له فضحك فخر الملك منه وقطع الانشاد ولم يتممه[١] .

يتضح مما تقدم ان مصنعة السهلية عدّت بمثابة المقياس الذي يقاس به ازدهار النهروان أو خرابه والمفتاح الذي تقفل به المياه عن مجرى ديالى فتحول الى النهروان ، ويروي المؤرخون حوادث كثيرة حول انهيار المصنعة واعادة انشائها ، وأهم ما ذكر في هذا الصدد الاعمال التي قام بها مجاهد الدين بهروز بين سنة ٥٣٤ وسنة ٥٤٠ هـ ، فقد بنى بهروز السكر مرات عدة حتى انه انفق عليه في سنة ٥٣٦ هـ سبعين الف دينار وبنى قرية قرب السكر سماها المجاهدية « وبنى لنفسه تربة هناك ووصل السلطان عقيب فراغه وجريان الماء في النهر فقعد هو والسلطان في سميرة وسارا في النهر المحفور وفرح السلطان بذلك وقيل انه كاتبه في تضييع المال فقال له فقد انفقت عليه سبعين الف دينار انا اعطيك اياها من ثمن التبن وحده ... » وقد قيل ان بهروز كان لا يزال يعمل على سد بثق النهروان الى أن مات في سنة أربعين وخمسمائة . ويقول ابن الجوزي في هذا الصدد : « ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وخمسمائة فمن الحوادث فيها أنه بدأ بهروز يعمل سكر النهروانات فبناه دفعتين وهو يتفجر ثم استحكم في الثالثة وما زال يعمل عليه الى ان مات في سنة أربعين »[٢] .

وقد عزا البعض من المؤرخين العرب موت بهروز الى قيامه باصلاح النهروان واعادة انشاء « سد السهلية » ، ذلك انه ما شرع أحد في هذا العمل إلا مات قبل انجازه ، فكتب القزويني (المتوفى سنة ٦٨٢ هـ) في كتابه « آثار البلاد واخبار العباد » في هذا الصدد قال : ـ « النهروان كورة واسعة بين بغداد

---

(١) « معجم الادباء » الجزء الاول ص ٢٣٩ ـــ ٢٤٠

(٢) كتاب « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » لأبن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ج ١٠ ص ٨٤ ، ٩٥ ، راجع أيضاً كتاب « مختصر مرآة الزمان » طبعة جامعة شيكاغو ص ١١٢ .

وواسط في شرقي دجلة كانت من أجل نواحي بغداد واكثرها دخلاً واحسنها منظراً وابهاها فخراً اصابتهـا عين الزمان فخربت بسبب الاختلاف بين الملوك السلجوقية وقتال بعضهم بعضاً وكانت ممر العساكر فجلى عنها أهلهـا واستمر خرابها والآن مدنها وقراها تلال والحيطان قائمة ثم بعد خرابها من شرع في عمارتها من الملوك مات قبل تمامها حتى اشتهر ذلك واستشعر الملوك من تجديد عمارتها وتطيروا بها الى زمن المقتفي (٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ = ١١٣٩ ـ ١١٦٠ م) فاراد بهروز الخادم عمارتها فقالوا له ما شرع في عمارتها أحد إلا مات قبل تمام عمارتها فشرع في عمارتها غير ملتفت الى هـذا القول فمات أيضاً قبل تمامها فبقيت على حالها الى زماننا هذا » .

وتلى اعمال بهروز اهمال « المصنعة السهلية » مما أدى الى خراب النهروان نهائياً ، ويظهر انه بقي على هذا الحال منذ ذلك الوقت الى يومنا هذا[1] . وقد أيد ذلك ابن الأثير الذي كتب في أواخر القرن السادس الهجري بقوله : « وفي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة شرع مجاهد الدين بهروز في عمل النهروانات سكر سكراً عظيماً يرد الماء الى مجراه الاول (أي الى النهروان) وحفر مجرى الماء القديم وخرق اليه مجراة تأخذ من ديالى ثم استحال بعد ذلك وجرى الماء ناحية من السكر وبقي السكر في البر لا ينتفع به أحد ولم يتعرض أحد الى رده الى مجراه عند السكر الى وقتنا هذا »[2] . وقد ذكر ياقوت أيضاً بأن « مصنعة السهلية » انهارت منذ ذلك الوقت مما ادى الى خراب منطقة النهروان نهائياً ، فقال : « والنهروان الآن (٦٢٦ هـ) خراب ومدنه وقراه تلال يراها الناس بها

---

(١) جاء فيما كتبه الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ في كتاب « شذرات الذهب » (ج ٤ ص ١٤) ان السد الذي كان قد اصلحه بهروز عاد فانشق في سنة ٥٤٦ هـ ولعله بقي على هذا الحال منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا .

(٢) ج ١١ ، ص ٥١

والحيطان قائمة وكان سبب خرابه اختلاف السلاطين وقتال بعضهم بعضاً في أيام السلجوقية إذ كان كل من ملك لا يحتفل بالعمارة إذ كان قصده ان يحوصل ويطير وكان أيضاً في ممر العساكر فجلا عنه اهله واستمر خرابه وقد استشأم الملوك أيضاً من تجديد حفر نهره وزعموا انه ما شرع به أحد إلا مات قبل تمامه ...» وقد كتب أيضاً في مادة « اسكاف بني الجنيد » في نفس المعنى، قال : «واسكاف بني الجنيد الآن خراب بخراب النهروان منذ ايام الملوك السلجوقية كان قد انسد نهر النهروان وانشغل الملوك عن اصلاحه وحفره باختلافهم وتطرقها عساكرهم فخربت الكورة باجمعها » .

٥ ـ موضع « مصنعة السهلية »

اما موضع « مصنعة السهلية » فعلى الرغم من انه لم يبق له أي أثر في الوقت الحاضر إلا ان الزراع القاطنين في منطقة « صفوة » واقفون على موضع السد الاصلي ، وهو الموضع المعروف اليوم باسم « قنطرة البغال » ، وهذا يقع على مجرى ديالى القديم المسمى « شط الاعمى » ، على بعد حوالي كيلومترين ونصف كيلومتر من جنوب غربي موضع « مدينة النهروان » وحوالي ثلاثة كيلومترات من شمال غربي « إمام أبي عرّوج» (راجع الرسم رقم ٢٩) . والمصدر الوحيد الذي يمكن الاستناد اليه حول هذا البناء هو ما كتبه المستر فيليكس جونس قبل حوالي مائة عام حين كان مجرى ديالى يسير في اتجاه موقع السد ، أي في اتجاه شط الاعمى ، وقد سماه «سد بلداي » نسبة الى التلول المعروفة حتى يومنا هذا باسم « تلول الولداية »، وهي التلول الواقعة على الضفة الغربية لنهر ديالى على مسافة حوالي ثلاثة كيلومترات من جنوب غربي موقع السد[1]، ويتضح من

---

(١) تقع « تلول الولداية» المذكورة في شرق الطريق العام الذي يسير بين تل محمد وبعقوبا على مسافة حوالي كيلومترين منه أمام عرب حسن حمزة التي تقع غربي الطريق المذكور .

ذلك ان فيليكس جونس حرّف التسمية بالنقل لان التسمية الصحيحة ينبغي ان تكون « سد الولداية » اذا اردنا تسمية السد باسم المنطقة التي يقع فيها .

ويظهر ان السد كان مبنياً بالآجر المختوم إذ رسم فيليكس جونس صورة الختم الذي كان على الآجر الذي بني منه السد ، ويتضح من ذلك ان كلمتي « هدى العباد » كانتا قد ختمتا على الآجر مما يثبت لنا بصورة أكيدة ان البناء عربي . ومن سوء الصدف انه لم يبق أي أثر للسد في الوقت الحاضر حيث غطته الاطيان التي ترسبت فوقه في مجرى ديالى القديم المندرس (شط الاعمى) ، على ان الاهلين يؤيدون بأن السد كان يقع على شط الاعمى في الموقع المبين في الرسم رقم (٢١)، كما انهم يؤيدون بانه كان مبنياً بالآجر المختوم (راجع الرسم رقم ٢٢)[1] .

رسم رقم ٢٢

الآجر المختوم الذى
بنيت به مصنعة السهلية
عن فيليكس جونس

وقد ذكر المستر فيليكس جونس في هذا الصدد ان البناء قد يظهر لأول وهلة بأنه يتألف من سدين منفصلين عن بعضهما ، إلا ان الواقع هو ان هناك ترميمات اجريت على السد مما يحمل المرء على الظن بأن البناء يتكوّن من سدين مستقلين على حين انه لم يكن إلا سداً واحداً فقط .

وقد يكون من المفيد ان نشير في هذا الصدد الى ان طريق خراسان العام بين بغداد « ومدينة جسر النهروان » قد تحوّل اتجاهه بعد انهيار سد ديالى

---

(١) راجع «منتخبات من سجلات حكومة بومباي ـ السلسلة الحديثة رقم ٤٣ سنة ١٨٥٧ ، ص ٤٦ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٨٢ .

الواقع في جبل حمرين ، أي بعد ان شقت مياه ديالى طريقها الى النهروان ومن ثم الى جدول ديالى القديم الذي ينتهي الى دجلة جنوب بغداد ، فأخذ الطريق يسير نحو « سد السهلية » ثم بعد أن يعبر من فوق السد يتجه نحو مدينة جسر النهروان[1] .

٦ ـ محاولة اعادة انشاء « سد السهلية » على عهد مدحت باشا

وفي زمن الاتراك العثمانيين ، أعني سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٩ م) إذ كان مدحت باشا والياً في بغداد ارتأى سد نهر ديالى من قرب موضع «سد السهلية» القديم لتحويل بعض مياهه الى النهروان والاستفادة من مياهه لارواء أراضي النهروانات القديمة ، ولا شك ان آثار «سد السهلية» القديم هي التي اوحت الى مدحت باشا القيام بهذا العمل ، وهو عبارة عن اعادة احياء المشروع القديم . ولكن السد الذي انشيء بالحطب والتراب لم يقو على مقاومة تيار الفيضان ، فلما صار موسم الفيضان جرفه التيار وعادت المياه تجري في المجرى الاصلي الذي ينتهي الى دجلة .

أما الموضع الذي اختاره مدحت باشا لانشاء السد فيه فيقع في جوار التل المعروف اليوم باسم « عرقوب صنكر » حيث يلتقي هناك النهروان بحافة نهر ديالى اليسرى وهو التل الكائن في منتصف المسافة بين موضع «مصنعة السهلية» وموضع « مدينة النهروان » . ولا تزال آثار الحفريات التي اجريت في مجرى النهروان في هذا المكان لتحويل المياه اليه ماثلة للعيان تشاهد على الضفة اليمنى للنهروان بالقرب من حافة نهر ديالى (راجع الرسم رقم ٢١) .

---

(١) راجع الرسم رقم ٢١ الذي يبين اتجاه الطريق قبل انهيار سد ديالى في جبل حمرين واتجاهه بعد انهيار السد ، راجع أيضاً البحث المتقدم الخاص بطريق خراسان العام في ص ٣٨٨

٧ ـ انهيار سد العظيم ونتائجه

هذا فيما يختص بـ « سد ديالى » القديم ومصيره ، اما فيما يختص بـ « سد العظيم » فانه وان انتهى الى مصير سد ديالى نفسه أيضاً ، إلا ان هناك احتمالاً قوياً بأن انهياره كان تدريجياً وانه لم يتم نهائياً حتى اواخر القرن الثاني عشر الميلادي (حوالي اواخر القرن السادس الهجري) ، وذلك نتيجة لتصدع حصل فيه قبل الانهيار النهائي بمدة ، مما يدل على ان القسم الأعلى للنهروان ، وهو القسم الذي يسحب المياه من نهر دجلة في جوار سامراء ويمتد الى حد نهر ديالى ، بقي عامراً مدة من الزمن (حوالي ثلاثة قرون) بعد انهيار سد ديالى ، أي انه استمر على سحب المياه من دجلة خلال هذه المدة التي تقع بين أواخر القرن الثالث وأواخر القرن السادس الهجري .

ويظهر ان « سد العظيم » انشيء بالأصل على القعر الصلب دون ان يقام له أســاس داخل القعر نظراً لتكوّن القعر من طبقة حجرية صلبة تنزل في الارض الى عمق كبير ، وان ظهور طبقات باطنية رخوة تحت الطبقة الحجرية الصلبة (Soft sub strata) أدت الى تسرب المياه الجوفية من خلال تلك الطبقات (Percolation) ، وكانت نتيجة ذلك ان حصل تصدع في السد أدى الى انهياره . ويستدل من التأكل الحاصل في الواجهة الامامية لدعامات الناظم الواقع في صدر « نهر روذان » ، وهو الناظم المبني بالآجر[1] ، ان السد بقي قائماً بصورة مهملة وبدون صيانة مدة طويلة قبل انهياره نهائياً .

وهناك من يظن ان السد خرّب عمداً أثناء الحروب الاهلية التي لازمت العهد العباسي الأخير بغية قطع المياه عن أراضي العظيم من جهة واغمار وادي العظيم من الجهة الاخرى ، وهو الوادي الذي يخترق النهروان فيشطره شطرين ،

---

(١) راجع البحث المتقدم الخاص بنهر روذان في ص ١٦٣ و ١٦٥ .

وبذلك يتم قطع المياه عن قسم النهروان الأسفل الذي يمتد شرق العظيم . ويعتقد فيليكس جونس ان السد خرب عمداً خلال الحروب والغزوات التي انتابت البلاد في العهد العباسي الأخير بغية قطع المياه عن النهروان الذي كان يعتبر من أهم الحصون الدفاعية في ذلك الزمن ، بل أهم مشروع يموّن منطقة دجلة الشرقية بأسرها بمياه الري .

وكان لانهيار سد العظيم وانسياب مياه نهر العظيم الى عقيقه القديم الذي ينتهي الى دجلة نتائج خطيرة بالنسبة الى مجرى نهر دجلة ، إذ ساعدت مياه فيضان نهر العظيم ومعها مياه نهر الزاب الصغير التي كانت تنصب في نهر العظيم[1] على تحول عقيق دجلة من اتجاهه الغربي الذي يمر بالعلث وعكبرا الى اتجاهه الحالي شرقاً ، وقد سبق ان ذكرنا الدور الذي لعبه « نهر القورج » في هذا التحوّل وكيف اصبح نهر دجلة يسير في وسطه . والظاهر ان مياه نهر العظيم أخذت تنصب في بادىء الأمر في مجرى دجلة الغربي الذي يمر بالعلث وعكبرا مخترقة المجريين ، النهروان والقورج ، ثم صارت تنصب في عقيق « القورج » نفسه بعد انبثاق سد القورج ودخول مياه فيضان دجلة فيه (راجع اللوحة رقم ٣ مقابل الصفحة ٢١٦ واللوحة رقم ٦ مقابل الصفحة ١٩٢)[2] .

---

(١) نستدل من دراساتنا ان مياه نهر الزاب الصغير كانت متصلة بنهر العظيم وقد كانت مياه فيضان نهر الزاب الصغير تنصب في نهر العظيم شمال سد العظيم بواسطة الجدولين « العباسي » و« الفيل » المتصلتين بوادي زغيتون الذي يمتد بين نهر الزاب الصغير ونهر العظيم وينتهي الى نهر العظيم شمال موقع السد بقليل . وكانت تحوّل هذه المياه مع مياه نهر العظيم الفائضة الى « بحيرة الشارع » حيث كانت تخزن لاغراض الري (راجع البحث الذي تقدم عن سد العظيم القديم في الصفحة ١٦٢ وفي رسالتنا الثانية من رسائل مشروعات الري الكبرى ـ خزان بحيرة الشارع المطبوعة في مطبعة المعارف سنة ١٩٤٨) .

(٢) راجع البحث المتقدم الخاص بـ « نهر القورج » في ص ٢١٢ .

٨ - تحوّل مجرى دجلة ونتائجه

ويمكننا ان نتصور الاضرار الفادحة التي نجمت من جراء انهيار « سد العظيم »، فقد كان نذير الموت المحتم لمنطقة شرقي دجلة بأسرها ، إذ جفت المنطقة القائمة على جانبي العظيم والتي كانت تروى من مياه النهرين ، العظيم والزاب الصغير ، من الفروع المتشعبة من أمام « سد العظيم » الواقع في جبل حمرين ، كما جفت منطقة النهروان بأسرها بعد ان اخترقت مياه نهر العظيم مجرى النهروان فشطرته شطرين ، القسم الصدري والقسم الاسفل .

وقد تلى هذا الحادث حادث آخر كان من الخطورة بحيث قضى على مشاريع منطقة ري سامراء كلها قضاء مبرماً ، واعني بذلك تحوّل مجرى دجلة من عقيقه الغربي الذي كان يسير في اتجاه العلث والحظيرة وعكبرا واوانا ومسكن الى المجرى الشرقي الحالي الذي يتجه نحو « مجرى القورج » القديم ويسير نحو « الضلوعية » و « السندية » الحاليتين ، وهو التحوّل الذي أدّى الى انخفاض مستوى مياه دجلة الصيفي حوالي تسعة أمتار بحيث انقطعت المياه الصيفية عن النهرين ، القاطول الاعلى الكسروي والقاطول العربي الاسفل أو نهر القائم[1] .

وهكذا تمزق النهروان فانقطعت المياه عن صدره الواقع في جوار سامراء بعد ان اخترقه مجرى نهر العظيم من الشمال واخترقه نهر ديالى من الجنوب ، وقد تم كل هذا في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، فقبر بذلك مشروع النهروان نهائياً وبقي مقبوراً منذ ذلك العهد حتى يومنا هذا (راجع اللوحة رقم ٦ مقابل الصفحة ١٩٢ والتفاصيل التالية الخاصة بتاريخ تحوّل مجرى دجلة).

---

(١) راجع البحث المتقدم الخاص بمجرى دجلة القديم في ص ١٧٧ .

ويظهر ان هناك محاولة قام بها ولاة الامور في الأيام الاخيرة من تحوّل مجرى دجلة لرفع مستوى دجلة بغية سحب المياه الصيفية الى صدر القاطول الاعلى الكسروي ، فقد انشئت سنون (سدود حجرية) وسط عقيق النهر أمام صدر القاطول المذكور عند « الدور » لا تزال آثارها تظهر بصورة جلية في النهر في موسم الصيهود وتسمى « الحراقيات » ، إلا ان تلك المحاولة لم تجد نفعاً بعد ان تمزّق مجرى النهروان وانقطعت المياه عن صدره الرئيسي جنوب سامراء .

ويلاحظ ان كل من كتب عن هـذا الموضوع من الباحثين والمؤرخين الفنيين تصور بأن تحول مجرى دجلة من الجهة الغربية الى اتجاهه الحالي في الجهة الشرقية كان نتيجة لانهيار « سد نمرود » ، على حين انه لم يعد هناك ثمة سد لينهار لأن « سد نمرود » فقد علائمه الاصلية كسد صحيح بمرور الزمن حتى صار جزء من الأراضي المرتفعة على شاطيء النهر الايسر . لذلك فان الأمر الذي وقع فعلاً هو ان بعض تفرعات مجرى النهر في جنوب موضع سد نمرود القديم[1]، وهي التفرعات التي تبتعد عن المجرى الرئيسي ثم تعود اليه جنوباً ، أخذت تنساب نحو الشرق في بادىء الأمر ثم توسعت هـذه التفرعات حتى وجدت طريقاً الى مجرى القورج المنخفض فتجمعت مياه دجلة فيه الأمر الذي أدى الى تحوّل مجرى النهر الى ذلك الاتجاه[2] . ويشاهد الكثير من مثل هذه التفرعات في مجرى النهر في تلك المنطقة ، إذ نجد في بعض الامكنة عدة تشعبات يشكل كل منها نهراً قائماً بنفسه وبعد ان تدور هذه التشعبات مسافة بضعة كيلومترات تعود فتلتقي بالمجرى الرئيسي جنوباً . ومن الامور المألوفة في هذه المنطقة تحوّل المجرى الرئيسي من شعبة الى اخرى وان الاراضي التي يتركها

---

(١) راجع البحث المتقدم الخاص بسد نمرود في الصفحة ١٦٧ .

(٢) راجع البحث المتقدم الخاص بنهر القورج في الصفحة ٢١٢

المجرى على ضفتي عقيق النهر بنتيجة هذه التحولات تكوّن أخصب وأوسع المزارع في تلك المنطقة وتسمى « الحويان » ومفردها « حاوي » .

وقد وقع المؤرخون والباحثون في ارتباك واضطراب عند بحثهم الموضوع فمنهم من قال ان تحوّل مجرى النهر وقع على أثر انهيار « سد نمرود » بنتيجة فيضان دجلة العظيم الذي وقع في سنة ٦٢٩ الميلاديه[1] فأدى ذلك الى تحوّل مجرى دجلة الى مجراه الشرقي الحالي ، ومنهم من قال ان « سد نمرود » خرّب عمداً من قبل الجيش الروماني في القرن الرابع الميلادي خلال غزواته على مملكة فارس ، كما ان هناك فريقاً آخر يرى ان « سد نمرود » انهار في الفترة التي تخللت القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي على أثر الاضطرابات التي اعقبت الفتح المغولي . كل هذا يدل على ان الباحثين في هذا الموضوع كانوا بعيدين كل البعد عن الحقيقة ، لا سيما وان هناك أدلّة وشواهد قاطعة تؤيد بأن التحوّل وقع حوالي أواخر القرن الثاني عشر الميلادي (أواخر القرن السادس الهجري) ، وذلك بنتيجة دخول مياه دجلة الى « نهر الفورج » واحتلالها ذلك النهر كما تقدم وصفه . وأهم دليل على ذلك ان المستنصر قام بتوسيع نهر دجيل وفتح فروعاً منه في المدة الواقعة بين سنة ٦١٣ هـ (١٢٢٦ م) و ٦٤٠ هـ (١٢٤٦ م) لارواء المدن والاراضي التي هجرها مجرى دجلة الغربي القديم بعد تحوّله الى اتجاهه الشرقي الحالي ، وان الفرع الذي انشأه من ضفة دجيل اليسرى لايصال المياه الى بساتين بلد والخظيرة ، وهو الفرع الذي لا يزال يسمى « بنهر المستنصر » ، يسير في بعض اقسامه في وسط عقيق دجلة القديم وسيأتي البحث عن ذلك فيما يلي .

ومن مروّجي النظرية القائلة بتحوّل دجلة في سنة ٦٢٩ الميلادية فيليكس

---

(١) حول المراجع عن هذا الفيضان انظر كتابنا « المصادر عن ري العراق » ص ١٥٩ و ١٦٥ و ١٦٦ و ١٦٩ .

جونس ، فقد ذكر ان « سد نمرود » جرف بفيضان دجلة العظيم الذي وقع في تلك السنة فأدى ذلك الى تحوّل نهر دجلة إلى مجراه الشرقي الحالي ، ويرى المستر جونس ان هذا التحول سبّب تلاشي المشاريع والمنشئات القديمة كلها ، بضمن ذلك النهروان ، فهام الوف وربما ملايين من الناس تاركين المنطقة الزراعية التي كانت تأويهم بعد أن أصبحت فجأة أرضاً جرداء على أثر انهيار السد متجهين نحو ضفاف مجرى دجلة الشرقي الجديد[١] . ويميل المستر لابن الى الاعتقاد بأن السد خرّب عمداً من قبل الجيش الروماني المنسحب وذلك على عهد الامبراطور جوليان (٣٦٣ م) بغية تخريب منطقة جداول الري الواقعة غربي مجرى دجلة وتحويل تلك المنطقة الى صحراء قاحلة فتكون بمثابة حاجز صحراوي على الحدود الرومانية في ارمينيا فتعيق حركة الغزاة[٢] . أما لي سترانج فيرى ان مجرى دجلة في هذا القسم بدأ يتحوّل الى المجرى الشرقي منذ القرن العاشر الميلادي وقد تم تحوّله نهائياً في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، على حين ان السير ويليم ويلكوكس بعد ان أيد في كتابه « اعادة احياء مشاريع الري القديمة على نهر دجلة » المطبوع في سنة ١٩٠٣ رأى فيليكس جونس القائل بتحوّل دجلة في سنة ٦٢٩، عاد فذكر في تقريره عن «ري العراق» المطبوع في سنة ١٩١١ ان سد نمرود انهار في الفترة الواقعة بين القرن الثالث عشر الميلادي والقرن الرابع عشر الميلادي ، وذلك على أثر الاضطرابات التي اعقبت الفتح المغولي ، الأمر الذي أدى الى تحوّل نهر دجلة من عقيقه الغربي الى مجراه الشرقي الحالي[٣].

أما حقيقة الامر فهي ان التحوّل وقع في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي

---

(١) راجع «التبعات في جوار سور الميدين» من سجلات حكومة بومباي لسنة ١٨٥٧ ص ٢٨٥—٢٨٦ .

(٢) راجع كتابه « قضايا البابليين » ص ١٢٢—١٢٨ .

(٣) راجع البحث المتقدم في الصفحة ١٧٣ .

(أواخر القرن السادس الهجري) ودليلنا على هذا أن بنيامين التطيلي لما زار «حربى» و« عكبرا » كان نهر دجلة لا يزال يجري في مجراه الغربي القديم صوب المدينتين المذكورتين ، على حين ان الحوادث تثبت لنا بأن النهر أخذ يجري في مجراه الشرقي الحالي على عهد المستنصر ، إذ قام المستنصر بتوسيع مشروع نهر دجيل الذي كان موجوداً من قبل ، فأنشأ القنطرة المشهورة المعروفة اليوم باسم « جسر حربى »[1] على مجرى دجيل الرئيسي ، كما انه حفر الفرع الذي ينتهي الى بساتين بلد والحظيرة في الجهة الشرقية من دجيل ، وهو الفرع الذي سمي باسمه (نهر المستنصر) فيسير في بعض اقسامه في وسط عقيق دجلة الغربي[2] . ولما كانت زيارة بنيامين التطيلي لحربى وعكبرا بين سنة ٥٦٩ هـ (١١٦٥ م) و ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م)[3] ، ولما كانت قنطرة نهر دجيل قد انشئت في سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م)، وهي القنطرة التي يرجح انها انشئت في نفس الوقت الذي انشيء فيه فرع المستنصر ، فاننا نستدل من ذلك بأن مجرى دجلة تحوّل في فترة الستين سنة بين سنة ١١٧١ م (٥٦٧هـ) وسنة ١٢٣١ م (٦٢٩ هـ) ، أي حوالي أواخر القرن الثاني عشر الميلادي (أواخر القرن السادس الهجري) . وأول من أشار الى حادث تحوّل عقيق دجلة الى اتجاهه الشرقي الحالي ابن عبد الحق صاحب كتاب « مراصد الاطلاع » الذي وضع معجمه بعد وقوع التحوّل بحوالي قرن واحد ، فذكر في مادة عكبرا « ان عكبرا كانت من الجانب الشرقي على شاطيء دجلة فلما استحالت دجلة الى جهة الشرق صارت دجلة تحتها تسمى الشطيطة » ، الأمر الذي يدل على ان المجرى الغربي القديم عرف باسم « الشطيطة » بعد وقوع التحوّل الى الجهة الشرقية الحالية وهو لا يزال يعرف بهذا الاسم الى يومنا هذا .

---

(١) راجع البحث التالي الخاص بمشروع نهر دجيل في هذا الفصل .

(٢) راجع البحث المتقدم عن نهر دجيل في ص ١٩٤ و ص ٢٠١ .

(٣) يستخلص لي سترانج ان بنيامين التطيلي زار بغداد في سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م).

وكان من نتائج تحوّل مجرى دجلة الى الجهة الشرقية الحالية ان هبط منسوب المياه في نهر دجلة فانقطع الماء عن صدر القاطول الاعلى الكسروي كما انقطع عن صدر القاطول الاسفل (نهر ابي الجند) ، وهكذا انتهت حياة النهروان الطويلة الحافلة بالاعمال الجليلة والمشروعات العمرانية الفريدة ، فهجرته الالوف من الناس تاركة وراءها آثاراً وأطلالاً تندب حظ ذلك الوادي العظيم وأهله . وتدل المناسيب على ان الهبوط الذي حصل في مستوى نهر دجلة بنتيجة تحوّل المجرى عن عقيقه الغربي القديم الى الاتجاه الشرقي الحالي يتراوح بين الثمانية أمتار والعشرة أمتار ، بدليل ان منسوب قعر صدر القاطول الأعلى الكسروي ومنسوب قعر صدر القاطول الأسفل (نهر أبي الجند) يعلوان الآن مستوى دجلة الصيفي الحالي حوالي ثمانية الى عشرة امتاراً أيضاً[1] .

٩ - مشروع نهر دجيل

وكان طبيعياً ان يبذل رجال الحكم جهودهم لمعالجة الوضع الخطير الذي تركته حادثة تحوّل مجرى دجلة ، لان نتائج التحوّل المذكور لم تقتصر على موت منطقة النهروان حسب بل شملت جدب المنطقة الواقعة على الضفة الشرقية لمجرى دجلة القديم ، وهي المنطقة التي تقع فيها مدائن « العلث » و « بلد » و « الحظيرة » و « عكبرا » و « أوانا » و « صريفين » و « بصرى » وغيرها من المدن والقرى[2] ، وقد عولج الوضع بأعادة تنظيم نهر دجيل القديم لايصال المياه الى هذه المنطقة بعد تحوّل مجرى دجلة عنها ، وهو المشروع الذي لا يزال يستفيد الزراع من القسم الاعلى من مجراه في موسم الشتاء وقد احتفظ باسمه القديم الى الآن حيث لا يزال يعرف باسم « نهر الدجيل » .

---

(١) راجع البحث المتقدم في ص ٣٥ و ١٧٢ .

(٢) ارجع البحث المتقدم الخاص بالمدن والقرى على مجرى دجلة القديم في ص ١٨٣ - ٢٠٢

أما تاريخ انشاء نهر دجيل فان هناك ما يدل على ان المشروع يرجع الى عهد قديم ولعله يرجع الى عهد كسرى أنوشروان ، وهو العهد الذي انشيء فيه « سد العلث » و « نهر الفورج »[1] ، وكان صدره آنذاك يتفرع من ضفة نهر دجلة اليمنى في نقطة تقع في جوار « تل مسعود » الحالي ، غير بعيد عن صدر فرع دجلة الغربي وسد نمرود القديم ، وتعرف اليوم آثار المجرى الذي يبدأ من هذا الصدر بأسم « عرقوب النهروان » . وكان نهر دجيل يروي المنطقة الواقعة على الضفة الغربية من مجرى دجلة الغربي القديم كلها ، وهي المنطقة التي تمتد بين بغداد وبلد (راجع الرسم رقم ٢ب مقابل ص ٩٦ واللوحة رقم ٢ مقابل ص ١٥٢ واللوحة رقم ٩ مقابل ص ١٩٢) ، فكان النهر ينقسم عند موضع « إمام الخضر » الواقع على بعد حوالي خمسة كيلومترات من جنوب شرقي « تل مسعود » الى فرعين رئيسيين ، يسير أحدهما في الاتجاه الجنوبي الشرقي نحو « قرية سميكة » الحالية ، مخترقاً ناحية « مسكن » القديمة حتى يصل الى مدينة بغداد الغربية ، ويسير الآخر في الاتجاه الغربي الجنوبي ، متبعاً أثر النهر القديم المسمى اليوم « عرقوب الفرحاتية » ، وهو الفرع الذي كان يسير وسط الجزيرة الواقعة بين النهرين ، دجلة والفرات ، ويمتد جنوباً حتى يصل الى جوار « نهر الكصاوي » الذي يتفرع من نهر الصقلاوية الحالي .

وكان يعرف الفرع الأول في العهد العربي بأسم « نهر بطاطيا » ، وكان هذا النهر من أهم الانهر الرئيسية التي كانت تمد مدينة بغداد الغربية بالمياه السيحية ، فكان بعد أن يخترق « طسوج مسكن » ماراً بمدينة « مسكن » ينتهي الى « طسوج قطربل » ومنه الى « محلة الحربية » ويفنى هناك . وكان يتفرع من « نهر بطاطيا » هذا عدة فروع تنتهي الى « محلة الحربية » في شمال مدينة بغداد الغربية . ويصف لنا ابن سرابيون المتوفى حوالي أواخر القرن الثالث الهجري « جدول بطاطيا » وفروعه المنتهية الى مدينة بغداد بتفصيل قال ما هذا

(١) راجع البحث المتقدم في ص ٢١٧ و ٢٢١ .

نصه : «ومن أنهار الحربية نهر يحمل من دجيل يقال له نهر بطاطيا أوله من أسفل فوّهة دجيل بستة فراسخ يمر فيسقي ضياعاً وقرى ويمر في وسط مسكن ويصب في الضياع ويفنى فيها . ويحمل منه نهر أسفل جسر بطاطيا بشيء يسير يجيء نحو مدينة السلام فيمر على عبارة قورج قنطرة باب الانبار ثم يدخل بغداد من هناك فيمر في شارع باب الانبار ويمر في شارع الكبش ويفنى هناك .

« ويحمل من نهر بطاطيا نهر اسفل من النهر الأول يجيء نحو بغداد فيمر على عبّارة يقال لها عبارة الكرخ بين باب حرب وباب الحديد ويمر فيدخل بغداد من هناك ويمر في شارع دجيل الى مربّعة الفرس فيحمل منه هناك نهر يقال له نهر دكان الابناء ويفنى هناك . ويمر النهر الكبير من مربّعة الفرس الى قنطرة أبي الجون فيحمل منه هناك نهر إلى كتّاب اليتامى الى مربعة شبيب ويصب هناك في نهر الشارع سنذكره . ثم يمر النهر الكبير من قنطرة أبي الجون الى شارع قصر هاني ثم يمر إلى بستان القس ويصب في النهر الذي يمر بشارع القصاطبة .

« ويحمل من نهر بطاطيا نهر أوله من قناة الكرخ يجيء الى بغداد ويمر على عبارة قورج على قنطرة باب حرب ويدخل بغداد من هناك ويمر في وسط شارع باب حرب إلى شارع دار ابن أبي عون ويجيء إلى مربعة أبي عباس ثم يجيء إلى مربعة شبيب فيصب فيه النهر الذي ذكرناه ثم يمر إلى باب الشام .

« وهذه الانهار التي في الحربية هي قنى تحت الأرض وأوايلها مكشوفة فافهم ذلك ان شاء الله تعالى » .

وأما بعد ان تحوّل نهر دجلة الى الشرق تاركاً مدائن العلث وحربى وبلد والحظيرة وعكبرا وغيرها الى يمينه على مسافة بعيدة عنه[1] فقد قام المستنصر [2]

---

(١) راجع البحث المتقدم الخاص بتحول نهر دجلة في ص١٧٧ و ٢٢٩

(٢) هو الخليفة « أبو جعفر المنصور المستنصر بالله » العباسي ، ابن الظاهر بأمر الله ، وحفيد الناصر لدين الله . ولد سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) وبويع بالخلافة =

بتحويل صدر نهر دجيل الى الشمال ، وهو الصدر الحالي الواقع مقابل سور القادسية في جوار اطلال الاصطبلات (راجع الرسم رقم ٢٥ واللوحة رقم ٢ مقابل ص ١٥٢) ، وفتح فروعاً جديدة من جانبه الايسر لارواء المنطقة التي انقطعت عنها المياه بعد تحوّل مجرى دجلة عنها ، وهي فروع كان معظمها يتشعب من الضفة اليسرى لمجرى دجلة ثم لما تحوّل هذا المجرى عنها واتجه نحو الشرق تاركاً اياها الى جانبه الغربي فتحت لها صدور جديدة تستمد مياهها من الضفة اليسرى لنهر دجيل الذي كان يسير محاذياً الضفة اليمنى لمجرى دجلة الأصلي. وقد وسع المستنصر الفرع الشرقي من نهر دجيل الذي يسير نحو سيكة وينتهي إلى بغداد (نهر بطاطية) بحيث اقتضى انشاء جسر للعبور عليه فأقامه بالقرب من مدينة « حربى » لأهمية موقع هذه المدينة آنذاك ، وهو الجسر الذي لا تزال آثار الكتابة تحمل اسم المستنصر وتاريخ انشاء الجسر (راجع الرسم رقم ٢٤ وفيه رسم دقيق للجسر حسب تخطيط مديرية الآثار القديمة العامة)[1] .

= يوم وفاة ابيه في ثالث عشر شهر رجب سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) . فنشر العدل بين رعاياه ، وقرب اليه أهل العلم والدين ، وانشاء المساجد والمدارس والمارستانات والخانات للسابلة وفي طليعة ذلك المدرسة المستنصرية ببغداد ، وغير ذلك من المرافق العمرانية العامة . دامت خلافته زهاء سبع عشرة سنة أي الى وفاته في سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) فتولى الخلافة من بعده ابنه المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس ببغداد .

(١) يقع هذا الجسر على مجرى دجيل على ٢٢ كيلومتراً من صدره وعلى مسافة حوالي ٩٠ كيلومتراً من شمال بغداد بالقرب من أطلال « مدينة حربى » القديمة (راجع البحث المتقدم الخاص بمدينة « حربى » القديمة في الصفحة ١٩١) ، وهو يقع على الطريق العام بين بغداد وسامراء ، وقد انشيء على عرض مجرى النهر في خط يمتد من الشمال الى الجنوب . وللقنطرة أربع فتحات يبلغ عرض كل من الفتحتين الجانبيتين ٥٠ر٥ متراً وعرض كل من الفتحتين الوسطيتين ٨٠ر٥ متراً ، وهناك ثلاث فتحات صغيرة بين الفتحات الاربع الكبيرة عرض كل منهـــا ٥٠ر١ متراً ، فيبلغ بذلك مجموع عرض مجرى الماء من تحت القنطرة ٦٠ر٢٢ متراً . اما مجموع طول الجسر فيبلغ ٥٤ متراً وعرضه ٨٠ر١١ متراً . وقد انشيء الجسر على طريقة المقادات الرأسية العربية الطراز (Pointed arches) بالآجر المفخور . وتجري مياه نهر دجيل المشتوية في الوقت الحاضر من تحت هذا الجسر ، وقد انشيء جسر جديد الى جانبه لعبور السيارات والناس عليه بغية المحافظة على بقايا الجسر الأثرية . وأهم ما في بقايا =

فيتضح مما تقدم ان نظرية دائرة الآثار العراقية القائلة بأن تحوّل مجرى دجلة تم في أوائل عهد المستنصر وان المستنصر هو الذي انشأ نهر دجيل[1] لا يمكن الأخذ بها .

= هذا الجسر الكتابة التي على جبهتيه وهي تمتد على طوله من اعلاه لمسافة مائة متر تقريباً. وهذه هي : -

١ — الكتابة في الجبهة الغربية .

« بسم الله الرحمن الرحيم واقيموا الصلوة وآتوا الزكوة واقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله ان الله غفور رحيم . الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سراً وعلانيـــة فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً . أمر بأنشاء هذه القنطرة المباركة تقرباً الى الله تعالى الذي لا يضيع أجر من أحسن عملا وطلباً للفوز بجنات الفردوس التي أعدهـــا للذين آمنوا وعملوا الصالحات نزلا سيدنا ومولانا الأمام امام المسلمين ووارث الانبياء والمرسلين وخليفة رب العالمين وحجته البالغة على الخلق أجمعين » .

٢ — الكتابة في الجبهة الشرقية :

« الذي أيد الله تعالى باعزاز نصره الدين وافترض طاعته على الحاضرين والبادين [واختصه من جليل بما] يعجز عنه حصر العادين أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين مكن الله له في ارضه تمكين الوارثين ورفع مقدس اعماله الصالحات الى عليين ونشر بعدالته الزاهرة في آفاق الأرضين وأوضح للخلائق بولايته سبيل الرشاد ومنهج الحق المبين بن الامام السعيد البر التقي أبي نصر محمد الظاهر بأمر الله بن الامام السعيد الزكي الظاهر الوفي أبي العباس الناصر لدين الله بن الامام السعيد الزكي أبي الحسن محمد المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين ووارث الخلفاء الراشدين الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين وذلك في سنة تسع وعشرين وستمئة وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله الطاهرين وسلامه

ملحوظة : اختلف المؤرخون والكتاب في نقل هذه الكتابة ، فقد نقلها فيليكس جونس ونشرها في كتاب (سجلات حكومة بومباي سنة ١٨٥٧ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٦) ، كما نقلها الدكتور مصطفى جواد فنشرها في مجلة لغة العرب (مجلد ٨ ، ١٩٣٠ ، ص ٣٢٢—٣٢٣) ، ونقلها ايضـــاً السيد محمود شكري الالوسي في مخطوط بحوزة الاستاذ كوركيس عواد ، وأخيراً نقلتها دائرة الآثار فنشرتها في نشرتها عن جسر حربى المطبوعة في مطبعة الحكومة سنة ١٩٣٥ . وتختلف هذه النصوص بعضها عن بعض الأمر الذي حملنا على الرجوع الى الصور الفوتوغرافية المكبرة فنقلنا عنها النص المدون اعلاه ، وقد ساعدنا في تدقيقه الاستاذ السيد كوركيس عواد فشكراً له .

(١) انظر الصفحة ٦ من نشرة دائرة الآثار العراقية عن جسر حربى

والظاهر ان نهر دجيل كان لا يزال موجوداً في زمن ياقوت الذي دوّن معجمه في حوالي سنة ٦٣٢ هـ (١٢٢٦ م) بالشكل الذي كان عليه في عهد المستنصر، فوصفه بقوله ان دجيل « اسم نهر مخرجه من أعلى بغداد بين تكريت وبينها مقابل القادسية دون سامراء ، فيسقي كورة واسعة وبلاداً كثيرة منها أوانا وعكبرى والحظيرة وصريفين وغير ذلك ، ثم تصب فضلته في دجلة أيضاً ، ومن دجيل هذا مسكن[1] التي كان عندها حرب مصعب بن الزبير ومقتله » . وقد أيد ياقوت قوله هذا في كتابه « المشترك » ، فقال ان دجيل « نهر في أعلى بغداد مخرجه من دجلة قبالة القادسية (من الجانب الغربي بين تكريت وبغداد) دون سر من رأى وعليه كورة كبيرة مشتملة على مدن وقرى » . أما قول ياقوت ان نهر دجيل كان يصب في دجلة فقد صحّح ابن عبد الحق ذلك بقوله ان نهر دجيل كان يصب في « الطاهرية »[2] المعروفة بـ « خندق طاهر »[3] .

وقد اورد ابن بطوطة الذي كتب حوالي منتصف القرن الثامن الهجري (منتصف القرن الرابع عشر الميلادي) ذكر نهر دجيل أيضاً ، وذلك بمناسبة وصف رحلته من بغداد الى الموصل فقال : « خرجت من بغداد الى منزل على

---

(١) راجع البحث المتقدم الخاص بـ « طسوج مسكن » في ص ١٩١

(٢) ان « خندق طاهر » كان ممراً بين « نهر عيسى » ودجلة تصرف فيه المياه الزائدة التي تتجمع في الفروع المتشعبة من ذنائب « نهر عيسى » و« نهر عيسى » هذا هو النهر الذي كان يتفرع من نهر الفرات شمال الفلوجة فيقطع الأراضي التي بين الفرات ودجلة ويصب في الجانب الغربي من دجلة جنوب مدينة بغداد . وكان « خندق طاهر » يقع في محلة الحربية ، وهي المحلة التي كانت في شمالي بغداد الغربية (راجع كتابنا وادي الفرات الجزء الثاني ص ٣٦ — ٣٧) . ومما كتبه ابن عبد الحق في مادة « الطاهرية » قوله انها مفيض (مستنقع) فضلات الماء من بز دجيل ومن نهر عيسى صار نهر أعليه فناطر معقودة بالآجر بعدة أبواب ويرمى الى دجلة .

(٣) جاء في ياقوت ان « الطاهرية » قرية ببغداد يستنقع فيها الماء في كل عام اذا زادت دجلة فيظهر فيها السمك المعروف بالبني فيضمنه السلطان بمال وافر واسمكها افضل على غيره .

نهر دجيل وهو يتفرع عن دجلة فيسقي قرى كثيرة ثم نزلنا بعد يومين بقرية كبيرة تعرف بجربى مخصبة فسيحة » .

١٠ ـ الغزو المغولي ووقعة نهر دجيل

وقد لعب نهر دجيل دوراً خطيراً في تقرير مصير معركة ٩ ـ ١٠ المحرم من سنة ٦٥٦ هـ بين جيوش هولاكو وعساكر الخليفة المستعصم[1] ، وهي المعركة الحاسمة التي غيّرت مجرى تاريخ العرب وقضت على الخلافة العباسيـــة وأدت إلى استيلاء المغول على العراق بأسره . ونظراً لأهميـة المعركة في تاريخ العراق وما لها من اتصال بنهر دجيل رأينا ان نتطرق الى بيان موقعها وذكر حوادثها ، وخلاصـــة الحادثة ، كما رواها ابن الفوطي والوزير رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، هي ان السلطان هولاكو لما قرر غزو العراق ارسل قسماً من جيوشه الى اربيل على ان يعبروا نهر دجلة في الموصل ويسيروا بمحاذاة ضفته الغربية حتى يصلوا الى بغداد الغربية ، وقد اتجه هذا الجيش بعد

---

(١) هو ابو احمد عبد الله المستعصم بالله ، آخر خلفاء الدولة العباسية ببغداد ، بويع له بالخلافة في سنة اربعين وستمائة ، وقد قتله المغول في سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨) . قال ابن الطقطقي في ذكر صفاته : « كان المستعصم رجلا خيراً متديناً لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان والفرج حمل كتاب الله تعالى وكتب خطاً مليحاً وكان سهل الاخلاق وكان خفيف الوطأة الا انه كان مستضعف الراي ضعيف البطش قليل الخبرة بامور المملكة مطموعاً فيه غير مهيب في النفوس ولا مطلع على حقائق الامور وكان زمانه ينقضي اكثره بسماع الاغاني والتفرج على المساخرة وفي بعض الاوقات يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة وكان اصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من اراذل العوام ... وفي آخر ايامه قويت الأراجيف بوصول عسكر المغول صحبة السلطان هولاكو فلم يحرك ذلك منه عزماً ولا نبه منه همة ولا احدث عنه هماً وكان كلما سمع عن السلطان من الاحتياط والاستعداد شيء ظهر من الخليفة نقيضته من التفريط والاهمال ولم يكن يتصور حقيقة الحال في ذلك » .

عبوره نهر دجلة في الموصل نحو نهر دجيل[1]، فاخترق المنطقة الواقعة غربيه حتى وصل الى نهر عيسى الواقع في ذنائب نهر الصقلاوية الحالي ، فعسكر هناك ومن ثم وصل الى محلة الحربية الكائنة في شمال غربي الكاظمية الحالية في نقطة تقع على بعد فرسخ واحد من قنطرة باب البصرة، وهي القنطرة الواقعة في جوار موضع الجعيفر الحالية . وما ان تقدمت جيوش الخليفة لمقاتلة المغول حتى تظاهر المغول بالانكسار وفق خطة مرسومة فانسحبوا الى الشمال في الاراضي السهلة الواقعة غربي نهر دجيل فتبعهم جيش الخليفة مندفعاً بسكرة الانتصار الموهوم دون ان يلتفت الى جناحه الايمن الممتد على طول نهر دجيل شرقاً[2] . وهكذا استمر جيش المغول في انسحابه وجيش الخليفة يتقدم الى الشمال وراءه ، وكلاهما يسيران في أراضي سهلة ليست فيها عوارض طبيعية يمكن احتماء جيش الخليفة بها في حالة هجوم مقابل من قبل المغول ، فأدركهما الليل فعسكر جيش الخليفة في موضع يقع في شمال النهر المسمى « نهر بشير » على بعد تسعة فراسخ من بغداد شمالاً . وقد وصف ابن الفوطي « نهر بشير » بقوله انه « بين دجيل »[3] ، كما وصف الوزير رشيد الدين فضل الله الهمذاني في كتابه « جامع التواريخ » الموضع الذي عسكر فيه جيش الخليفة بقوله انه « حيال الانبار قرب قلعة المنصور تحت المرزقة على بعد تسعة فراسخ من بغداد » .

---

(١) هذا ماذكره الهمذاني فيما يختص بالموضع الذي عبر فيه الجيش المغولي نهر دجلة ، الا ان ابن الطقطقي خالفه في ذلك فقال ان عسكر هولاكو المتوجه الى غربي دجلة عبر نهر دجلة من تكريت (راجع كتابه « الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية » طبعة غرنفولد سنة ١٨٥٨ ص ٣٨٦) .

(٢) يستدل مما رواه ابن الفوطي عن هذه الواقعة ان الامير فتح الدين بن كر الذي كان يرافق الحملة قد أشار على قائد الجيوش ، وهو الدويدار الصغير مجاهد الدين ايبك ، بان يثبت مكانه ولا يتبع المغول فلم يصغ الى اشارته

(٣) ذكر الهمذاني هذه المنطقة فسماها « البشيرية » من نواحي دجيل .

ولقد تحرينا كثيراً في هذه المنطقة علّنا نعثر على نهر قديم باسم « نهر بشير » في بزابز نهر دجيل ، ولكننا لم نجد لهذا الاسم أثراً ، ونميل الى الاعتقاد بأن النهر القديم المتشعب من الضفة اليمنى لنهر دجيل بالقرب من التلول المعروفة اليوم باسم « تلول الناظري » والذي يمتد في الأراضي الواقعة بين النهرين، دجلة والفرات ، متجهاً نحو بزابز نهر الصقلاوية الحالي ، هو من آثار « نهر بشير » الذي ذكره ابن الفوطي . ويسير هذا النهر بموازاة النهر القديم المعروف اليوم باسم « نهر مسعود » من الناحية الشمالية متجهاً نحو الأراضي المنخفضة المعروفة اليوم باسم « أراضي الهورة » في جوار النهرين الكصاوي والعيساوية من فروع ذنائب نهر الصقلاوية الحالي ، وهي الأراضي التي يقع فيهـا تل الدير المسمى « دير الهورة »[1] . أما الموضع الذي عسكر فيه جيش الخليفة والذي وصفه الهمذاني انه «حيال الانبار قرب قلعة المنصور على تسعة فراسخ من بغداد» فيقع في جوار التلول المعروفة باسم « قبور الياسري » ، وهي التلول الواقعة وسط أراضي الجزيرة الممتدة بين النهرين ، دجلة والفرات، على مسافة حوالي أربعين كيلومتراً من شمال مدينة بغداد . ويتفق هذا الموضع مع وصف الهمذاني حيث يقع حيال الانبار كما انه يقع بالقرب من « تل المنصور » الحالي الذي نعتقد انه موضع « قلعة المنصور » التي ذكرها الهمذاني ، وهو التل الكائن بالقرب من « امام منصور » على مسافة حوالي أربعة كيلومترات من جنوب غربي قرية الدجيل الحالية (سميكة)[2] وعلى بعد زهاء اثني عشر كيلومتراً من شمال شرقي « قبور الياسري ».

ويظهر ان قواد الجيش العباسي باتوا ليلتهم تلك في هذا الموضع تملؤهم بنشوة الانتصار الموهوم إذ لم يحسبوا حساباً لما كان يبيته لهم المغول من مكيدة لايقاعهم في الفخ ، فبينما كان جيش الخليفة غارقاً في نومه مغتبطاً بما عدّه نصراً

---

(١) راجع البحث المتقدم الخاص بدير الهورة المذكور في ص ١٩٧ (حاشية ١) .
(٢) راجع البحث المتقدم الخاص بامام منصور المذكور في ص ١٩٨ .

كبيراً كان الجيش المغولي يتهيأ للهجوم الذي رسمت خطته من قبل ، ولما كان نهر دجيل الذي يؤلف ميمنة الجيش العباسي واقعاً تحت سيطرة المغول قام المغول بسده وتحويل مياهه كلها الى « نهر بشير » ففاض هذا النهر وغمر «اراضي الهورة » المنخفضة الواقعة وراء الجيش العباسي فقطعت عليه خط الرجعة ، فلما باغته المغول بهجومه المفاجيء انكسر وكر راجعاً الى بغداد، فوجد نهر بشير قد فاض من الليل وملأ الصحراء ، فعجزت الخيول عن سلوكه ووحلت فيه ، فلم يخلص منه إلا من كانت فرسه شديدة ، والقى معظم العسكر نفسه في دجلة فهلك منهم خلق كثير ودخل من نجا منهم بغداد مع الدويدار على اقبح صورة، وتبعهم المغول يقتلون فيهم وغنموا سوادهم وكل ما كان معهم ، ونزلوا بالجانب الغربي (من بغداد) وقد خلا من أهله » . هذا ما قاله ابن الفوطي في كتابه « الحوادث الجامعة » عن مصير هذه المعركة التاريخية التي مهدت السبيل الى هولاكو الذي كان قادماً من الجهة الشرقية فحاصر مدينة بغداد الشرقية حتى أتمّ احتلالها ، اما الهمذاني فقال : « ان عساكر المغول وصلت الى البشيرية من نواحي دجيل وكانت المياه كثيرة غزيرة في تلك المواضع فكسر المغول سدود المياه حتى غمرت الارض من وراء الجيش العباسي كلها ، وفي العاشر من المحرم في طلوع الشمس هجم المغول على الجيش العباسي ، وقتل ابن كر وأمير معه اسمه قراسنقر ، وقتل من عسكر الخليفة اثنا عشر الفاً عدا المتورطين في الطين ونجا الدويدار مع جماعة قليلة من العسكر فدخلوا بغداد »[1] .

ومما ساعد على اغمار الاراضي من وراء الجيش العباسي ان الموسم الذي وقع فيه هذا الحادث كان موسم شتاء ، إذ يوافق يوم الحادث (١٠ المحرم سنة ٦٥٦ هـ) ١٤ كانون الثاني سنة ١٢٥٨ م ويكون في منتصف الموسم المذكور . ومن المعلوم

---

(١) تفضل الاستاذ الدكتور مصطفى جواد فترجم لنا هذه النبذة عن النسخة الفارسية من كتاب الهمذاني « جامع التواريخ » فشكراً له .

ان هطول الامطار في هذا الموسم يؤدي إلى ارتفاع مناسيب مياه النهرين ، دجلة والفرات ، فيعرّض أرض الدلتا كلها إلى خطر الغرق فيما إذا لم تتخذ تدابير واقية لدفع خطر الانغمار عنها . وقد جاء فيما ذكره ابن الفوطي ما يؤيد ان الموسم الذي وقع فيه الحادث كان موسم امطار ، إذ ذكر ان المغول لما احتلوا الجانب الشرقي من المدينة « قتلوا الرجال والنساء والصبيان والاطفال وكانت القتلى في الدروب والاسواق كالتلول ، ووقعت الامطار عليهم ووطئتهم الخيول فاستحالت صورهم » ، واشار الى وجود الوحول في الطرق بقوله ان « عدد القتلى زادت عن ثمانمائة الف نفس عدا من ألقي من الاطفال في الوحول » .

وقد يكون من المفيد ان ندون هنا رواية ابن الطقطقي في كتابه «الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية » عن الواقعة المذكورة ، وكان معاصراً لها ، قال : « فحينئذ وقع الشروع في قصد بغداد وبث العساكر اليها . فتوجه عسكر كثيف من المغول والمقدم عليهم باجو إلى تكريت ليعبروا من هناك إلى الجانب الغربي ويقصدون بغداد من غربيها ويقصدها العسكر السلطاني من شرقيها . فلما عبر عسكر باجو من تكريت وانحدر الى اعمال بغداد اجفل الناس من دجيل والاسحاقي ونهر الملك ونهر عيسى ودخلوا إلى المدينة بنسائهم وأولادهم حتى كان الرجل أو المرأة يقذف بنفسه في الماء ... فلما وصل العسكر السلطاني إلى دجيل وهو يزيد على ثلاثين الف فارس خرج اليه عسكر الخليفة صحبة مقدم الجيوش مجاهد الدين أيبك الدويدار . وكان عسكراً في غاية القلة فالتقوا بالجانب الغربي من بغداد قريباً من البلد . فكانت الغلبة في أول الأمر لعسكر الخليفة ، ثم كانت الكرة للعسكر السلطاني فأبادوهم قتلاً وأسراً وأعانهم على ذلك نهر فتحوه في طول الليل فكثرت الوحول في طريق المنهزمين فلم ينج منهم إلا من رمى نفسه في الماء أو من دخل البرية ومضى على وجهه الى الشام . ونجا الدويدار في جمعية من عسكره ووصل إلى بغداد » . والذي يستفاد من هذا الوصف ان النهر

الذي أعان المغول على التغلب على عسكر الخليفة هو نهر بشير الذي ذكره ابن الفوطي واشار اليه ابن الطقطقي في موطن آخر نقلاً عن ابن أيدمر الذي شهد المعركة نفسها قال : « حدثني فلك الدين محمد بن أيدمر قال كنت في عسكر الدويدار الصغير لما خرج إلى لقاء التتر بالجانب الغربي من مدينة السلام في واقعتها العظمى سنة ست وخمسين وستمائة قال فالتقينا بنهر بشير من اعمال دجيل فكان الفارس منا يخرج الى المبارزة وتحته فرس عربي وعليه سلاح تام كأنه وفرسه الجبل العظيم ثم يخرج اليه من المغول فارس تحته فرس كأنه حمار وفي يده رمح كأنه المغزل وليس عليه كسوة ولا سلاح فيضحك منه كل من رآه ثم ما تم النهار حتى كانت لهم الكرة فكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر ثم كان من الأمر ما كان » .

ومن غريب الصدف ان معركة مصعب بن الزبير مع عبد الملك بن مروان كانت قد وقعت في نفس موضع وقعة المغول المتقدمة قبل حوالي ستمائة عام ، وهي المعركة التي لقي فيها مصعب بن الزبير حتفه[1] . ويلاحظ أيضاً ان معركة البرسقي مع دبيس بن صدقة صاحب الحلة في سنة ٥١٦ هـ كانت قد وقعت في جوار الموضع نفسه إذ ذكر ابن الأثير ان «البرسقي ارسل الى الموصل واحضر عساكره وسار الى الحلة وأقبل دبيس نحوه فالتقوا عند نهر بشير شرقي الفرات واقتتلوا فانهزم عسكر البرسقي »[2] .

١١ - نهر دجيل الحالي

ولم يبق من القرى والمدن الكثيرة التي كانت تقع على نهر دجيل في زمن ازدهاره إلا البلدتان «بلد» و « سميكة » ، وتسمى الاخيرة اليوم «الدجيل» .

---

(١) راجع البحث المتقدم الخاص بهذه المعركة في ص ١٩٠ — ١٩٩

(٢) راجع ابن الأثير الجزء العاشر ص ٤٢٢

أما النهر فقد بقي محافظاً على القسم الاعلى من مجراه وهو القسم الذي يمتدّ بين الصدر وبلدة « سميكة » طوال السبعة قرون ونصف قرن الاخيرة ، وان هذا القسم الذي يبلغ طوله حوالي خمسين كيلومتراً لا يزال يستخدم من قبل الزراع على الرغم من تراكم الترسبات فيه التي جعلت من مجراه نهيراً صغيراً لا تدخله المياه إلا في أعلى منسوب فيضان دجلة ، وقد أصبحت ضفافه تعلو القعر أكثر من عشرة أمتار في بعض الاماكن مما يجعل رفع الاطيان منه من أصعب الأمور، لذلك صار أصحاب بساتين « سميكة » يعتمدون على الاكثر على مياه الآبار في ارواء بساتينهم .

أما صدر نهر دجيل الحالي فيبدأ عند الحاوي « أراضي كبان » بالقرب من مضخة السيد عبدالقادر كمال ، ويشاهد على مسافة قليلة الى الشمال صدر قديم يتفرع من نهر دجلة يعتقد انه مجرى الصدر الذي انشيء في زمن المستنصر ثم ابدل بالصدر الحالي بعد تراكم الترسبات في الصدر الأول وانطمار حوضه . ولعل مجرى الصدر الحالي هو المجرى الذي حفره والي بغداد مرتضى باشا حين عمر نهر دجيل في سنة (١٠٧١ هـ) إذ جاء في اخبار تلك السنة ان الوالي المذكور عمر نهر دجيل بعد ما كان دهراً خراباً واحدث في حربى خاناً وبستاناً وحماماً وجعلها وقفاً وجعل فيه كما كان سابقاً ثلاث خطب : خطبة في حربى وخطبة في بلد وخطبة في سميكة[1] . ويمتد مجرى الصدر القديم موازياً المجرى الحالي من الغرب مسافة حوالي ستة كيلومترات ثم يتصل بالمجرى الحالي في الموضع المعروف بالخرم ، وتسمى آثار هذا المجرى القديم « نهر الصخرية القديم » .

ويتفرع من ضفتي نهر دجيل الحالي عدة فروع قديمة لا يستفاد إلا من بعضها وهي الانهر الواقعة في جوار بلد وسميكة حيث يروي الاهلون مزارعهم

---

(١) « اصول التاريخ والأدب » (ج ٩ ص ٥٥) .

الشتوية منها . وأهم الفروع التي يستفاد منها في الوقت الحاضر الفرع الذي يخرج من الضفة اليسرى ، أعني الفرع الذي يتجه نحو مدينة بلد الحالية ، وهو « نهر المستنصر » ، فيستفيد منه الزراع لأرواء بساتينهم في موسم الشتاء عند دخول المياه الى نهر دجيل ، أما صدر هذا الفرع فيبدأ بالقرب من « إمام الخضر » في نقطة تقع على بعد حوالي عشرة كيلومترات الى الجنوب من صدر دجيل الرئيسي، ثم يمتد في الاتجاه الجنوبي الشرقي ، وبعد أن يسير حوالي سبعة كيلومترات يصل قرب « العلث » فيتركها الى جانبه الايسر ثم يسير في وسط مجرى دجلة القديم مسافة ثمانية كيلومترات اخرى حتى ينتهي الى بساتين بلد الحالية الواقعة شرقي مجرى دجلة القديم ، ويمكن مشاهدة آثار الفروع القديمة التي تتشعب من النهر المذكور ، حيث ينتهي بعضها الى مدينة الحظيرة القديمة الواقعة جنوب بساتين بلد الحالية ، وهـــذه لا تزال تسمى « أنهر الحظيرة » نسبة الى مدينة الحظيرة . كما أن نهر بلد المذكور لا يزال يسمى باسم « نهر المستنصر » مما يؤيد على انه حفر على عهد المستنصر ، ويسمى هذا الفرع بأسم « المستنصر الجديد » لتميزه عن المجرى القديم أي « المستنصر القديم » الذي يتفرع من شمال شرقي المجرى الأول ، والمجرى القديم يسير شرقاً حوالي سبعـــة كيلومترات موازياً مجرى المستنصر الجديد قبل ان يتصل به . ونظراً لانقطاع المياه عن نهر دجيل في الموسم الصيفي فان أكثر أصحاب بساتين بلد يعتمدون في الوقت الحاضر على الآبار لأرواء بساتينهم ، على حين يعتمد البعض الآخر على سحب المياه من نهر دجلة لايصالها الى البساتين بطريقة الضخ .

وقد انشأت دائرة الري مؤخراً ناظماً ذا فتحة واحدة على « نهر المستنصر الجديد » في نقطة تقع على نحو ثلاثة كيلومترات من صدره الواقع بالقرب من « إمام الخضر » لضبط المياه فيه أثناء موسم الفيضان نظراً لانخفاض أراضي بلد، ذلك الانخفاض الذي يعرّض تلك الأراضي الى خطر الغرق في الفيضانات العالية .

أما نهر المستنصر القديم فيستعمل مجراه في الوقت الحاضر لامرار مياه مضخة عجيل الياور فيه ، وهي المياه التي تسحب من نهر دجلة بواسطة الضخ فتنصب في وسط مجرى نهر المستنصر القديم ثم تعبر فوق نهر المستنصر الحديث (نهر بلد الحالي) في نقطة تقع في مقدم ناظم الري الجديد بقليل ، وبعد أن تعبر نهر دجيل في نقطة تقع على مسافة قليلة من جنوب صدر نهر المستنصر الجديد (نهر بلد) تتجه نحو أراضي الفرحاتية ، وهي أراضي واسعة كان يرويها نهر الفرحاتية القديم الذي كان يتفرع من الضفة اليمنى لنهر دجيل من أمام صدر نهر المستنصر والذي لا تزال آثار مجراه وآثار فروعه ممتدة على الضفة اليمنى لمجرى نهر دجلة القديم مسافة غير قليلة في قلب الجزيرة . وفي أراضي الفرحاتية تشاهد اليوم شجرة يرجع تاريخها الى زمن ازدهار مشروع نهر دجيل لا تزال في قيد الحياة ، وتسمى محلياً « شجرة العسل »، وبالاصطلاح الفني (Ticonella undulata) وهي شجرة ذات أزهار تتحمل العطش ، وقد سميت « شجرة العسل » لما يشاهده المرء من مادة عسلية في أسفل أزهارها[1].

ويلاحظ أن تسمية نهر بلد بالمستنصر تسمية قديمة ترجع الى تاريخ انشائه وقد احتفظ النهر بها حتى يومنا هذا ، إذ ذكر ابن عبدالحق (٧٣٩ هـ) في مادة « عكبرا » أن بعد تحول مجرى دجلة القديم الى عقيقه الشرقي الحالي صار ما في شرقي المجرى القديم من أراضي من عمل نهر دجيل واستطرد قائلاً بأن نهر بلد « يسمى المستنصري لأن الامام المستنصر استخرج له نهراً يسقيه من دجيل ووقفه على آدر المضيف التي انشأها في محال بغداد لفطور الفقراء في شهر رمضان » .

ولا تزال آثار الفروع المتشعبة من نهر دجيل ماثلة للعيان وهي تؤلف شبكة

---

(١) افادني بهذا الاستاذ السيد عبد الجبار بكر، الخبير الزراعي في مديرية الزراعة العامة، فله مني الشكر .

من الجداول المالية القديمة على طرفي نهر دجيل القديم فتسير الفروع الشرقية نحو نهر دجلة والفروع الغربية نحو نهر الفرات ، ومن أهم هذه الجداول التي يقطعها الزائر في طريقه بين بغداد وبلد ، « الناظري » و « السكربوزي » و « الواويلي » و « الانهر الثلاثة » و « جويث » وغيرها (راجع اللوحة رقم ٢ مقابل الصفحة ١٥٢ واللوحة رقم ٦ مقابل الصفحة ١٩٢) ، وهذه الانهر كلها مندرسة عدا النهر الذي يتفرع من « إمام الخضر » ويسير نحو بساتين بلد الحالية فيستفيد الزراع منه في الوقت الحاضر إذ تجرى فيه المياه في موسم الفيضان فتروي بساتين بلد والاراضي المجاورة لها .

وخلاصة القول ان القسم الاعلى من نهر دجيل الذي يستفاد منه في الوقت الحاضر لارواء « بلد » و« سميكة » في موسم الفيضان هو آخر ما تبقى من مشروعات ري سامراء التي بحث عنها في هذا الكتاب ، وهي المشروعات التي كانت تروي ما يقرب من ثلثي أراضي العراق الرسوبية الزراعية . ولا بد من القول في هذا الصدد بان هذه المنطقة العريقة في تاريخها المجيد والتي كانت في زمن ما مضرب الامثال في خصبها وخيراتها ، بفضل ازدهار المشاريع التي مر ذكرها ، قد اصبحت الآن أرضاً بلقعاً لا زرع فيها ولا ضرع ترتادها الذئاب والوحوش وتغزوها الرمال من كل صوب . نعم ، ان هذه المنطقة التي كانت رياضاً غناء بضعة عصور ، وموطناً للزراعة والعمران ، قد أصبحت قاحلة وأمست خراباً يبابا لا يمكن الوصول اليها دون قيادة ربان الصحراء . ولو كانت للآثار والاطلال لسان لوصفت لنا العز والرفاه اللذين كانا مخيمين على سكان تلك البقاع ، ولكن ذلك الصمت الرهيب الذي يسيطر على كل حواسنا والتاريخ المجيد الذي ترتسم سلسلة حوادثه في مخيلتنا حين نزور هذه الاطلال يغني عن النطق ، ففيه عتاب ، وفيه لوم ، وفيه مطالبة ، وفيه مناداة . نعم ، عتاب ولوم لتقاعسنا عن واجبنا ، أما المطالبة والمناداة فهي مطالبتنا بالعمل لاحياء موات هذه الأرض المباركة ، فهل نحن ملبون النداء ومجيبون للمطالبة ؟ ...